بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنطقَ الإنسانَ، وعلّمه البيانَ، وجعل كلامَ البشر مَظهَرَ حسنِه المستتر، ولطَّف أسرارَ العارفين بإلهامه، وكمّل أرواح الروحانيين بإنعامه، وكفَل أمرهم بعنايته، واستودعهم ظِلَّ حمايته، وعادى مَن عادى أولياءه وما غادرهم عند الأهوال، وسمع دعاءهم إذا أقبلوا عليه كل الإقبال، وأرى لهم غيرتَه وصار لهم كقَسْوَرةٍ للأشبال، ولوَى إليهم كزافرةٍ في مواطن الجدال، وما زايَلَهم في موقف وما نسِيهم عند الابتهال، وألزمهم كلمة التقوى، وثبّتهم على سُبل الهدى، وجذَبهم إلى حضرته العُليا، ووهب لهم أعينًا يبصرون بها، وقلوبًا يفقهون بها، وجوارحَ يعملون بها، وجعَلهم حِرْزَ المخلوقين وروحَ العالمين. والسلام والصلاة على رسولٍ جاء في زمن كان كدَسْتٍ غاب صدره، أو كلَيْلٍ أفَل بدره، وظهر في عصر كان الناس فيه يحتاجون إلى العُصْرة، وكانت الأرض أمحلتْ وخلَتْ راحتُها مِن بخل المُزْنة، فأروى الأرضَ التي احترقت لإخلاف العِهاد، وأحيا القلوب كإحياء الوابل للسَنَةِ الجَمادِ، فتهلّلَ الوجوه وعاد حِبْرُها وسِبْرُها، وتراءتْ معادنُ الطبائع وظهرت فضّتُها وتِبْرُها، وطُهّر المؤمنون من كل نوعِ الجُناح، وأُعطوا جَناحًا يطير إلى السماء

بعد قصّ هذا الجَناح، وأُسِّسَ كلّ أمرهم على التقوى، فما بقي ذرّةٌ من غير الله ولا الهوى، وطُهّرتْ أرض مكّة بعد ما طِيفَ فيها بالأوثان، فما سُجد على وجهها لغير الرحمن، إلى هذا الأوان. فصلّوا على هذا النبي المحسن الذي هو مظهر صفات الرحمن المنّان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. والقلب الذي لا يدري إحسانه، فلا إيمان له أو يضيع إيمانه. اللهم صلّ على هذا الرسول النبي الأُمّي الذي سقى الآخرين كما سقى الأوّلين، وصبّغهم بصِبغ نفسه وأدخلهم في المطهّرين. فنوّرهم الله بإشراق أشعّة المحبّة، وسقاهم من أصفى المُدامة، وألحقَهم بالسابقين من الفانين، وقرّبهم وقبل قربانَهم، ودقّق مشاعرهم وجلّى جنانهم، ووهب لهم من عنده فَهْمَ المقرّبين، وزكّى نفوسهم وصفّى ألواحهم، وحلّى أرواحهم، ونجّى نفوسهم من سلاسل المحبوسين، وكفَل أمورهم كما هي عادته بأصفيائه، وشرح صدورهم كما هي سيرته في أوليائه، ودعاهم إلى حضرته، ثم تبادرَ إلى فتح الباب برحمته، وأدخلهم في زمرته، وألحقَهم بسكّان جنّته، وقيل: دارَكم أتيتم، وأهلَكم وافيتم، وجُعلوا من المحبوبين. وهذا كله من بركات محمدٍ خيرِ الرسل وخاتم النبيين، عليه صلوات الله وملائكته وأنبيائه وجميع عباده الصالحين.

أما بعد.. فاعلموا أيها الطالبون المنصفون، والعاقلون المتدبّرون، أني عبد من عباد الرحمن، الذين يجيئون من الحضرة، وينـــزلون بأمر ربّ العزّة، عند اشتداد الحاجة، وعند شيوع الجهلات والبدعات وقلّة التقوى والمعرفة، ليجدِّدوا ما أخْلَقَ، ويجمعوا ما تَفرّقَ، ويتفقّدوا ما افتُقِدَ، ويُنجِزوا ويُوفوا ما وُعِدَ من رب العالمين، وكذلك جئتُ وأنا أوّل المؤمنين.

وإني بُعثت على رأس هذه المائة المباركة الربّانية، لأجمع شَمْلَ المِلّة الإسلامية، وأدفع ما صِيلَ على كتاب الله وخيرِ البريّة، وأكسر عصا مَن عصى وأقيم جدران الشريعة. وقد بيّنتُ مرارًا وأظهرتُ للناس إظهارًا، أني أنا المسيح الموعود والمهدي المعهود، وكذلك أُمرتُ وما كان لي أن أعصي أمر ربي وألحَقَ بالمجرمين. فلا تعجَلوا عليّ وتَدبّروا أمري حق التدبّر إن كنتم متّقين، وعسى أن تكذّبوا امرَأً وهو من عند الله، وعسى أن تفسّقوا رجلاً وهو من الصالحين. وإن الله أرسلني لأصلح مفاسد هذا الزمن، وأفرّق بين روض القدس وخَضْراءِ الدِّمَن، وأُرِيَ سبيل الحق قومًا ضالين. وما كان دعواي في غير زمانه، بل جئتُ كالربيع الذي يمطر في إبّانه، وعندي شهادات من ربي لقوم مستَقْرين، وآياتٌ بيّنات للمبصرين، ووجهٌ

كوجه الصادقين للمتفرّسين. وقد جاءت أيام الله وفُتحتْ أبواب الرحمة للطالبين، فلا تكونوا أوّل كافرٍ بها وقد كنتم منتظرين.

أين الخفاء؟ فافتحوا العين أيها العقلاء، شهدتْ لي الأرض والسماء، وأتاني العلماء الأمناء، وعرَفني قلوب العارفين، وجرى اليقين في عروق قلوبهم كأقْرِيةٍ تجري في البساتين. بيد أن بعض علماء هذه الديار ما قبلوني من البخل والاستكبار، فما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم حسدًا واستعلاءً، ورضُوا بظلمات الجهل وتركوا علمًا وضياءً. فتراكمَ الظلام في قولهم وفعلهم وأعيانهم، حتى اتخذ الخفافيش وَكْرًا لجنانهم، وما قعد قارِيةٌ على أغصانهم. وكانوا من قبل يتوقعون المسيح على رأس هذه المائة، ويترقّبونه كترقُّب أهلّةِ الأعياد أو أطايبِ المأدبة، فلما حُمَّ ما تَوقَّعوه، وأُعطيَ ما طلبوه، حسبوا كلام الله افتراء الإنسان، وقالوا: مفتري يُضلّ الناسَ كالشيطان، وطفِقوا يشكّون في شأنه بل في إيمانه، وكذّبوه وفسّقوه وكفّروه مع مُريديه وأعوانه. وأنزل الله كثيرا من الآيِ فما قبلوا، وأرى التأييدَ في المَبادئ والغايِ فما توجّهوا، وقالوا كاذب وما تَفكّروا في مآل الكاذبين، وقالوا مختلِق وما تَذكّروا مَن دَرَجَ من المختلقين.

والأسف كل الأسف أنهم يقولون ولا يسمعون، ويعترضون ولا يُصغُون، ويلمِزون ولا يحقّقون، وحصحص الحق فلا يبصرون، وإذا رموا البريءَ بأَفِيكةٍ فضحكوا وما يبكون. ما لهم لا يخافون، أم لهم براءة في الزُبُر فهم لا يُسألون؟ وما أرى خوفَ الله في قلوبهم بل هم يؤذون الصادقين ولا يبالون. ما أرى فِناءَ صدورهم رَحْبًا، وكمثلهم اختاروا صَحْبًا، ويهمِزون ويغتابون وهم يعلمون. ولا يتكلمون إلا كطائر يخذُق، أو كمسلول يبصُق، لا يبطُنون أمرنا، ولا يعرفون سرَّنا، ثم يكفرون ويسبّون ويهذِرون مِن غير فهم الكتاب، ولا كهريرِ الكلاب. وما بقي فيهم فهمٌ يهديهم إلى صراطٍ مستقيم، ولا خوف يجذبهم إلى سُبل مرضاة الله الرحيم. ومنهم مقتصدون، يكذّبون ولا يعلمون، وبعضهم يكفّون الألسنة ولا يسبّون، وتجد أكثرهم مفحِشين علينا ومكفّرين سابّين غيرَ خائفين.

فليَبْكِ الباكون على مصيبة الإسلام، وعلى فتن هذه الأيام. وأيّ فتنة أكبر من فتن هذه العلماء، فإنهم تركوا الدين غريبا كشهداء الكربلاء. وإنها نار أذابت قلوبنا، وجنّبتْ جنوبَنا، وثقّلتْ علينا خطوبنا، ورمتْ كتاب الله بأحجار من جهلات الجاهلين. وترى كثيرا منهم يُخفون الحق ولا يجتنبون الزُور كالصلحاء، وتكذب ألسنتهم عند الإفتاء. غشّوا طبائعهم بغواشي الظلمات، وقدّموا حَبَّ

الصِلات على حُبّ الصَلاة. نبذوا القرآن وراء ظهورهم للدنيا الدنيّة، وأمالوا طبائعهم إلى المقنيّات الماديّة. واشتدّ حرصُهم ونهمتُهم وشغفُهم باللذّات الفانية، وجاوز الحدَّ شحُّهم في الأماني النفسانية. ما بقي فيهم علمُ كتاب الله الفرقان، ولا تقوى القلوب وحلاوة الإيمان. وتَباعدوا من أعمال البر وأفعال الرشد والصلاح، وانتقلوا من سُبل الفلاح إلى طرق الطلاح. وعاد جَمْرُهم رمادًا، وصلاحهم فسادًا. بعُدوا من الخير والخيرُ بعُد منهم كالأضداد، وصاروا لإبليس كالمقرَّنين في الأصفاد، وانجذبوا إلى الباطل كأنهم يُقادون في الأقياد. يخونون في فتاواهم ولا يتقون، ويكذّبون ولا يبالون، ويقرُبون حرماتِ الله ولا يبعُدون، ولا يسمعون قول الحق بل يريدون أن يسفكوا قائله ويغتالون. ولما جاءهم إمام بما لا تهوى أنفسهم أرادوا أن يقتلوه وهم يعلمون. وما كان لبشر أن يموت إلا بإذن الله فكيف المرسَلون؟ إنه يعصم عباده من عنده ولو مكر الماكرون. يقولون نحن خدام الإسلام وقد صاروا أعوانًا للنصارى في أكثر عقائدهم، وجعلوا أنفسهم كحِبالةٍ لصائدهم. يقولون سمعنا الأحاديث بالأسانيد، ولا يعلمون شيئا من معنى التوحيد. ويقولون نحن أعلمُ بالأحكام الشرعية، وما وطئتْ أقدامهم سِكَكَ الأدلّة الدينية. يطيرون في الهوى كالحَمام، ولا يفكّرون في ساعة الحِمام. يسعون

لحطامٍ بأنواعِ قلقٍ، ويُخرِجون كأهل النفاق رؤوسَهم مِن كلّ نفقٍ. يقعون من الشحّ على كل غضارة، ولو كان فيه لحم فأرة. إلا الذين عصمهم الله بأيدي الفضل والكرامة، فأولئك مبرَّأون مما قيل وليس عليهم شيء من الغرامة، وإنهم من المغفورين.

ومن الفتن العظمى والآفات الكبرى صولُ القسوس بقِسِيِّ الهَمْزِ واللَمْزِ كالعَسوس. وكلّ ما صنعوا لجرحِ ديننا من النِّبال والقِياس، بنَوه على المكائد كالصائد لا على العقل والقياس. نبذوا الحقّ ظِهْرِيًّا، وما كتبوا فيما دوّنوه إلا أمرًا فَرِيًّا. وقد اجتمعتْ هممُهم على إعدام الإسلام، واتفقت آراؤهم لمحو آثار سيدنا خيرِ الأنام. يدعون الناسَ إلى اللظى والدَّرْك، ناصبين شَرَكَ الشِرْك. وما وجدوا كيدًا إلا استعملوه، وما نالوا جهدًا إلا بذلوه. استحرّتْ حربُهم، وكثر طعنهم وضربهم، ونعَرتْ كُوساتُهم، وصاحت مِن كل طرف بُوقاتُهم، وجالت خيولهم، وسالت سيولهم، وسعوا كل السعي حتى جمعوا عساكر الإلحاد، ورفعوا راياتِ الفساد. وصُبّتْ على المسلمين مصائبُ وخُرّبتْ تلك الربوع، وأُهْديتْ لسُقياها الدموع، وكثُر البدعة، وما بقِي السُنّة ولا الجماعة، ورُفع القرآن وضاقت عن صَونه الاستطاعة.

فحاصل الكلام أن الإسلام مُلِئَ من الآلام، وأحاطت به دائرة الظلام، وأَرَى الزمانُ عجائب في نقضِ أسواره، وأسال الدهرُ سيولا لتعفية آثاره، وأكمل القدر أمره لإطفاء أنواره. ولما كان هذا مِن المَشِيّة الربانية، مَبْنيًّا على المصالح الخفيّة، فما تطرّقَ إلى عزم العِدا خللٌ، ولا إلى أيديهم شللٌ، ولا إلى ألسنتهم فللٌ. وكان من نتائجه أن المِلّة ضعفتْ، والشريعة اضمحلّتْ، وجرَفتْها المجارف، حتى أنكرها العارف، وكثر اللغو وذهب المعارف. باخت أضواؤها، وناءت أنواؤها، ودِيسَ المِلّةُ وطالت لَأْواؤُها. وكان هذا جزاءَ قلوبٍ مقفَّلة، وأثامَ صدورٍ مغلَّقة. فإن أكثر المسلمين فقدوا تقواهم، وأغضبوا مولاهم، وترى كثيرا منهم شغَفهم حبُّ الأموال والعَقار والعِقيان، ومَلَكَ فؤادَهم هوى الأملاك والنسوان، وقلَّب قلوبَهم لوعةُ إمْرتِها فشُغلوا بها عن الرحمن. وترى أكثرهم اعتضدوا قِرْبةَ الملحدين، وانقادوا كقَؤُودٍ لسيرِ الكافرين. وحسبوا أن الوصلة إلى الدولة طرقُ الاحتيال أو القتال، وزعموا أن النَبالة لا يحصل إلا بالنِبال، فليس عندهم تدبيرُ تأييدِ الملّة مِن غير سفك الدماء بالمرهَفات والأسنّة، ويستَقْرون في كل وقت مواضعَ الجهاد، وإنْ لم يتحقق شروطه و لم يأمر به كتابُ ربّ العباد. ومن المعلوم أن هذا الوقت ليس وقتَ ضرب الأعناق لإشاعة الدين، ولكل وقتٍ حُكم

آخر في الكتاب المبين، بل يقتضي حكمةُ الله في هذه الأوقات، أن يؤيَّد الدينُ بالحجج والآيات، وتُنقَد أمورُ المِلّة بعين المعقول، ويُمعَن النظرُ في الفروع والأصول، ثم يُختار مسلكٌ يهدي إليه نورُ الإلهام ويضعه العقلُ في موضع القبول، وأن يُعَدَّ عُدّةٌ كمثل ما أعدَّ الأعداء، ويُفَلَّ السيفُ ويُحَدَّ الدهاءُ، ويُسلَك مسلَكُ التحقيق والتدقيق، وتُشرَب الكأسُ الدِهاقُ من هذا الرحيق. فإن أعداءنا لا يسُلّون النواحلَ للنحْلة، ولا يُشيعون عقائدهم بالسيوف والأسنّة، بل يستعملون ما لطُف ودقَّ من أنواع المكائد، ويأتون في صور مختلفة كالصائد. وكذلك أراد الله لنا في هذا الزمان، أن نكسر عصا الباطل بالبرهان لا بالسِنان، فأرسلني بالآيات لا بالمرهَفات، وجعل قلمي وكِلمي منبعَ المعارف والنكات، وما أعطاني سيفًا وسنانًا، وأقام مقامهما برهانًا وبيانًا، ليجمع على يدي الكلِمَ المتفرّقة، وينظم بي الأمور المتبدّدة، ويسكِّن القلوب الراجفة، ويبكِّت الألسنة المرجِفة، وينير الخواطر المظلمة، ويجدّد الأدلة المُخْلِقة، حتى لا يبقى أمر غير مستقيم، ولا نهج غير قويم.

فحاصل القول.. إن البيان والمعارف من معجزاتي، وإن مرهفاتي آياتي وكلماتي. وكنت دعوت بعض أعدائي لإراءة هذه المعجزة، لعل الله يشرح صدورهم أو يجعل لهم نصيبًا من نور المعرفة، فقلت

إن كنتم تنكرون بإعجازي، وتصولون عليّ كالغازي، وتظنون أنكم أُعطيتم علم القرآن وبلاغةَ سحبان، فتعالوا ندعُ شهداءنا وشهداءكم، وعلماءنا وعلماءكم، ثم نقعد مقابلين، ونكتب تفسير سورةٍ مرتجلِين، منفردين غير مستعينين. فما كان أحدٌ منهم أن يقبل الشرط المعروض، ويتّبع الأمر المفروض، ويقعد بحذائي، ويُملي التفسير كإملائي، بل جعلوا يكيدون ليطفئوا النور، ويكذّبوا المأمور. وكان أحدٌ منهم يقال له "مهر عليّ"، وكان يزعم أصحابُه أنه الشيخ الكامل والوليّ الجليّ، فلما دعوته بهذه الدعوة، بعد ما ادّعى أنه يعلم القرآن وأنه من أهل المعرفة، أبى مِن أن يكتب تفسيرا بحذاء تفسيري، وكان غبيًّا ولو كان كالهمذاني أو الحريري، فما كان في وسعه أن يكتب كمثل تحريري. ومع ذلك كان يخاف الناسَ، وكان يعلم أنه إنْ تخلّفَ فلا غلبة ولا جِحاسَ، فكاد كيدًا وقال إني سوف أكتب التفسير كما أُشيرَ، ولكن بشرط أن تباحثني قبله بنصوص الأحاديث والقرآن، ويُحكَّم مَن كان لك عدوًّا وأشدَّ بُغضًا من علماء الزمان*، فإنْ صدّقني وكذّبك بعد سماع البيان، فعليك أن تبايعني بصدق الجنان، ثم نكتب التفسير ولا نعتذر ونترك الأقاويل، وإنّا قبلنا شرطك وما زدنا إلا القليل. هذا ما كتب إليّ

* أراد مِن ذلك الرجل محمد حسين البتالوي. منه.

وطبعه وأشاع بين الأقوام، واشتهر أنه قبِل الشرائطَ وما كان هذا إلا كيدًا لإغلاط العوام. ولما جاءني مكتوبه المطبوع وكيده المصنوع، قلت إنّا لله ولعنتُ ما أشاع، وتأسّفتُ على وقتٍ ضاع. ثم إنه استعمل كيدًا آخر، ورحل من مكانه وسافر، ووصل لاهورَ، وأثار النقع كالثور، وأرجفت الألسنةُ أنه ما جاء إلا ليكتب التفسير في الفور. فلمّا رأيت أنهم حسبوا الدودةَ ثعبانا، والشوكة بستانا، قلتُ في نفسي أن نذهب إلى لاهور فأيّ حرجٍ فيه، لعل الله يفتح بيننا ويسمع الناس ما يخرج من فينا وفيه. فشاورتُ صَحْبتي في الأمر، وكشفتُ عندهم هذا السر، واستطلعتُ ما عندهم من الرأي، وسردتُ لهم القصة من المَبادئ إلى الغاي، فقالوا لا نرى أن تذهب إلى لاهور، وإنْ هو إلا محلّ الفتن والجور، وقد تبيّن أنه ما قبِل الشروط، وأرى الضمورَ والمُقُوطَ، وتَشَحَّطَ بدمه وما رأى سبيل الخلاص إلا الشُّحوطَ، وهَمَطَ وغَمَطَ، وما ذبح كَبْشَ نفسه وما سَمَطَ وما قَمَطَ، وإنا سمعنا أنه ما جاء بصحة النيّة، وليس فيه رائحة من صدق الطويّة، هذا ما رأينا والأمر إليك، والحق ما أراك الله وما رأيت بعينيك. وكذلك كانت جماعتي يمنعونني ويردَعونني، ويُصرّون عليّ ويكُفّونني، حتى تلوّيتُ عما نويتُ، وحُبّب إليّ رأيهم فقبِلتُ وما أبيتُ، وتركتُ ما أردتُ، وطويتُ الكشح عما قصدتُ. ثم

طفق المخالفون يمدحونه على فتح الميدان، ويطيّرونه مِن غير جناح العرفان، وكانوا يكذبون ولا يستحيون، ويتصلّفون ولا يتّقون، ويفترون ولا ينتهون، وينسبون إليه بحارَ محامدَ ما استحقَّها، وأبكارَ معارفَ ما استرقَّها. وكانوا يسبّونني كما هي عادة السفهاء، ويذكرونني بأقبح الذكر وبالاستهزاء. ويقولون إن هذا الرجل هاب شيخَنا وخافَ، وأكله الرعب فما حضر المصافَّ، وما تخلّفَ إلا لخطبٍ خشَّى وخوفٍ غَشَّى، ولو بارزَ لكلَّمه الشيخُ بأبلغ الكلمات، وشَجَّ رأسه بكلام هو كالصَفاة في الصِفات. وكذلك كانوا يهذِرون، ويستهزئون بي ويسبّون.

ووالله لا أحسب نفسي إلا كمَيْتٍ تُرِّبَ، أو كبيتٍ خُرِّبَ، والناس يحسبونني شيئًا ولستُ بشيء، وما أنا إلا لربّي كفَيْءٍ، وما كان لي أن أبارز وأدعو العِدا، ولكنّ الله أخرجني لهذا الوَغى، وما رميتُ إذ رميتُ ولكن الله رمى. ولي حِبٌّ قدير وإعانتُه تكفيني، ومِتُّ فظهر الحِبُّ بعد تجهيزي وتكفيني، ووهب لي بعد موتي كلامًا كالرِياض، وقولاً أصفى من ماء يسيح في الرَضْراض، وحجّةً بالغة تلدَغ الباطل كالنَضْناض، وكلُّها من ربي وما أنا إلا خاوِي الوِفاضِ، وأُمرتُ أن أنفق هذه الأموال على الأوفاض، وأنْ أرُمَّ جدران الإسلام قبل الانقضاض. ومَن بارزني فقد بارز اللهَ رب العالمين، وما

جئتُ إلا بزيِّ المساكين، وما أجِيْزُ حَزْنًا مِن حَولي، ولا بَطْنًا من جَولي، بل معي قادرٌ يواري عِيانَه، ويُري برهانَه، فلأجل ذلك تحامت العِدا عن طريقي، وقُطّعت النحورُ والأعناق من مِنْجَنِيقي، وما لأحد بمقاومتي يَدانِ، ويدي هذه تعمل تحت يد الله الرحمن. نزلتْ عليّ بركات هي حِرْزٌ للصالحين، فجمعتُ بها لنفسي التحصينَ والتحسين.

ومن نوادر ما أُعْطِيَ لي من الكرامات، أن كلامي هذا قد جُعل مِن المعجزات. فلو جهّز سلطانٌ عسكرًا من العلماء، ليبارزوني في تفسير القرآن ومُلَحِ الإنشاء، فواللهِ إني أرجو من حضرة الكبرياء أن يكون لي غلبةٌ وفتحٌ مبينٌ على الأعداء. ولذلك بثثتُ الكتبَ وأشعتُ الصحف النُخَبَ في الأقطار، وحثثتُ على هذا المصارعة كلَّ مَن يزعم نفسه من أبطال هذه المضمار، وما كان لأحد من علماء هذه الديار أن يبارزني فيما دعوتُهم بإذن الله القهّار.

فما أنت وما شأنك أيها المسكين الجولرويّ؟ أتتغاوى عليّ بأخلاط الزمر وأوباش الناس أيها الغويّ؟ أيها الغافل.. اعلم أن السماء أهدتْك إليّ لتكون نموذجَ عبرةٍ في الأرضين، وقادَك إليّ القدرُ ليُرِي الناسَ ربي قدرَ المقبولين. وإنّا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساءَ صباحُ المنذَرين. أيها المسكين.. لا تقُلْ غيرَ الصدق، ولا تشهد لغير الحقّ،

واتّق الله ولا تكُنْ من المجترئين. أأنت تجد في نفسك قدرة على تفسير القرآن، برعايةِ مُلَحِ الأدب ولطائف البيان؟ سبحان ربي! إنْ هذا إلا كذب مبين. وأنت تعلَم مبلَغَ علمك وتعلَم مَن معك ومن تبعك، ثم تدّعي الفضل كالماكرين. ويعلم العلماء أنك لست رجلَ هذا الميدان، ولكنهم يكتُمون عُوارَك كما يُكتَم الداء الدخيل ويُسعَى للكتمان. فحاصل الكلام.. أنك لست أهل هذا المقام، وما علّمك الله العلمَ والأدب مِن لدنه موهبةً، وما اقتنيتَ المعارف مكتسَبةً، ومع ذلك لما حللتَ لاهورَ، ادّعيتَ كأنك تكتب التفسير في الفور، تعاميتَ أو ما رأيتَ عند غلوائك، وفعلتَ ما فعلت وسدرتَ في خيلائك، وخدعتَ الناس بأغلوطاتك، ولوّنتهم بألوانِ خزعبيلاتك، وخدعتَ كلّ الخدع حتى أجاح القومَ جَهَلاتُك، وأهلك الناسَ حَيَواتُك. ثم ما تركتَ دقيقة من الإغلاظ والازدراء، وتفرّدتَ في كمال الزراية والسب والهذر والاستهزاء. وما قصدتَ لاهور إلا لطمعٍ في محامد العامّة، ولتُعَدَّ في أعينهم مِن حُماة المِلّة، ومِن مُواسِي الدينِ ومُعالِجِي هذه الغُمّةِ ببذل المال والهمّة، ولعلك تأمَنُ بهذا القدر حصائدَ الألسنة، ولا تُرهَق بالتَبِعة والمَعْتَبة، وليحسب الناسُ كأنك منـــزَّه عن مَعرّة اللَكَن، ولستَ كعِنِّينٍ في رجال اللَسَنِ، وليظنَّ العامةُ الذين هم كالأنعام، أنك رُزقتَ مِن كلّ

علم وأُنعمتَ من أنواع الإنعام، وأُعطِيتَ بصيرةً تُدرِك منتهى العرفان، وإصابةً تُكمّل دائرةَ البيان، وفهمًا كفهمٍ ذَوّادٍ عن الزيغ والطغيان، وعقلاً كبازي يصيد طير البرهان، ونطقًا مؤيَّدًا بالحجج القاطعة المنيرة، ونفسًا متحلّيةً بأنواع المعارف وحسن السريرة، وتوفيقًا قائدًا إلى الرشد والسَّداد، وإلهامًا مُغْنِيًا عن غيرِ ربّ العباد. ثم ما بقي منك مِن تحميدك، كمَّله صَحْبُك في تأييدك، وأُنشِدَ الأشعار في ثنائك، وما تُرِكَ دقيقةٌ في إطرائك، ثم سبّوني وحقّروني بعد رفعك وإعلائك، وكانوا لا يلاقون أحدًا ولا يوافون رجلاً إلا ويذكرونني عندهم استخفافا، وأكلوا لحمي بالغِيبة فما أكلوا إلا سُمًّا زُعافًا.

فلمّا بلغتْ إهانتهم منتهاها، وكَلَّمَني كَلِمُهم بمُداها، ووصل الأمر إلى مَداها، ورأيتُ أنهم جاروا كل الجَور، وأثاروا كالثور، وتركوا طريق الإنصاف، وسلكوا مسلك الاعتساف، وكثُر الهذَر والهذَيان، ومُلِئتْ بكلمات السبّ القلوبُ والآذان، وتاهت الخيالات وكُذّبت المعارف وصُدّقت الجهلات، أُلقِيَ في رُوعي أن أنجّي العامّةَ من أغلوطاتهم، وأُطفئ بقولٍ فَيْصلٍ ما سعّروا بتُرّهاتهم، وأكتب التفسيرَ وأُرِيَ الصغيرَ والكبير أنهم كانوا كاذبين. وما حملني على ذلك إلا قصدُ إفشاءِ كذبِ هذا المكّار، فإنه مكَر مكرًا كُبَّارًا، وأظهر كأنه

من العلماء الكبار، وادّعى أنه يعلم القرآن وفاق الأقران، وحان أن يغلِبَ ويُعانَ.

والغرض من تفسيري هذا تفريق الظلام والضياء، وإراءةُ تضوُّعِ المسكِ بحذاءِ جيفة البَيداء، وإظهارُ خَدْعِ الخادعِ ومواساةُ الرجال والنساء، والاشفاقُ على العُمْي ومُتّبعي الأهواء، وقضاءُ خَطْبٍ كان كحقٍّ واجبٍ ودَينٍ لازمٍ لا يسقط بدون الأداء. فهذا هو الأمر الداعي إلى هذه الدعوة، مع قلّة الفرصة، ليكون تفسيرُ الفرقان فرقانًا بين أهل الهدى وأهل الضلالة. ولولا التصلّف وتطاوُلُ اللسان وإظهارُ شجاعة الجنان من هذا الجبان، لمررتُ بلَغْوِه مرور الكرام، وما جعلتُه غرضَ السهام، ولكنه هتَك سِتْرَه بيديه، فكان منه ما ورد عليه. وإنه كذب كذبًا فاحشا وما خافَ، بل خدع وزوَّر وأغرى عليّ الأجلافَ، وزعم نفسه كأنه صاحبُ الخوارق والكرامات، وعالِمُ القرآن وشارِبُ عينِ العرفان ومالِكُ الدقائق والنكات. فوجب علينا أن نُرِيَ الناس حقيقةَ ما ادّعاه، ونُظهِرَ ما أخفاه، ولولا الامتحان، لصعب التفريق بين الجماد والحيوان. وكنتُ أقدِر أن أُرِيَ ظالِعَه كالضليع وحُمُرَه كالأفراس، ولكن هذا مقام العَماس لا وقتَ عفوِ عِثار الناس. والمتكبّر ليس بحَرِيٍّ أن يقال عِثارُه وستر* عُواره.

* سهو، والصحيح: يُستَر. (اللجنة).

وكذلك لا يليق به أن يُعرِض عن ذلك الخصام ويستقيل من هذا المقام، مع دعاوي العلم وكونِه من العلماء الكرام، بل ينبغي أن يُسبَر عقلُه، ويُعرَف حقله، وقد ادّعى أنه صبّغ نفسَه بألوان البلاغة كجُلودٍ تُحلَّى بالدِباغة، فإن كان هذا هو الحق ومن الأمور الصحيحة الواقعة، فأيُّ خوف عليه عند هذه المقابلة، بل هو مَحَلُّ الإبشار والفرحة، لا وقت الفزَع والرِعْدة، فإن كمالاتِه المخفيّةَ تظهَر عند هذا الامتحان والتجربة، ويرى الناسُ كلهم ما كان له مستورًا من الشأن والرتبة. ومن المعلوم أن قيمة المرء الكامل يزيد عند ظهور كماله، كما أن البئر يُحَبُّ ويُؤْثَر عند شربِ زُلاله. ولا يخفى أن القادر على تفسير القرآن، يفرح كلَّ الفرح عند السؤال عن بعض معارف الفرقان، فإنه يعلم أن وقت إشراقِ كوكبه جاء، وحان أن يُعرَف ويُخزَى الأعداء، فلا يحزن ولا يغتمّ إذا دُعِيَ لمقابلة ونُوديَ لمناضلة، بل يزيد مسرّةً ويحسبها لنفسه كبشارة، أو كتفاؤُلٍ لإمارة، فإن العالم الفاضل لا يُقدَر حق قدره، إلا بعد رؤية أنوار بدره، ولا يخضَع له الأعناقُ بالكلّية إلا بعد ظهور جواهره المخفيّة.

وإنّا اخترنا الفاتحة لهذا الامتحان، فإنها أُمُّ الكتاب ومفتاح الفرقان، ومنبعُ اللؤلؤ والمرجان، وكوُكْنةٍ لطير العرفان. وليكتبْ كلٌّ منّا تفسيرها بعبارة تكون من البلاغة في أقصاها، وتنير القلبَ

وتضاهي الشمسَ في بعض معناها، ليرى الناسُ مَن اقتعدَ منّا غاربَ الفصاحة، وامتطى مطايا الملاحة، وليُعرَفَ أريبٌ حداه العقلُ إلى هذا الأَرَب، ويُعلَم أديبٌ ساقه الفهم إلى رياض العرب، وليُضمِّرَ كلٌّ منّا لهذا المراد كلَّ ما عنده من الجِياد، ويفري كلَّ طريق من الوِهاد والنِجاد، بزاد اليَراعِ والمِداد، ليشاهد الناسُ مَن تُداركه العناية الإلهية، وأخَذ بيده اليدُ الصمديّة. ومَن كان يزعم نفسه أنه هو العالم الربّاني، فليس عليه بعزيز أن يكتب تفسير السبع المثاني، مع رعايةِ مُلَحِ الأدب وشواردِ المعاني.

ثم إني أرخيتُ له الزمام كل الإرخاء، ووسّعتُ له الكلامَ لتسهيل الإنشاء، وكتبتُ من قبلُ في صحيفةٍ أشعتُها، ونميقةٍ إليه دفعتُها، أن ذلك الرجل الغُمْر إنْ لم يستطع أن يتولى بنفسه هذا الأمرَ، فله أن يُشرِك به من العلماء الزُّمَرَ، أو يدعو من العرب طائفةَ الأدباء، أو يطلب من صلحاء قومه همّةً ودعاءً لهذه اللأواء. وما قلتُ هذا القول إلا ليعلم الناس أنهم كلهم جاهلون، ولا يستطيع أحدٌ منهم أن يكتب كمثل هذا ولا يقدرون.

وليس من الصواب أن يقال إن هذا الرجل المدعوّ كان عالمًا في سابق الزمان، وأمّا في هذا الوقت فقد انعدم علمُه كثلج ينعدم بالذوبان، ونسَج عليه عناكبُ النسيان، فإن العلم الذي ادّعاه

وحفظه ووعاه، وقرأه وتلاه، لا بدّ أن يكون له هذا العلمُ كدَرٍّ ربّاه، أو كسراجٍ أضاء بيتَه وجلاّه، فكيف يزول هذا العلم بهذه السرعة، ويخلو كظرفٍ منثلمٍ وِعاءُ الحافظةِ، وتنـــزل آفةٌ مُنسيةٌ على المَدارك والجَنان، حتى لا يبقى حرف على لوحها إلى هذا القدر القليل من الزمان؟ وكيف تهبّ صراصر الذهول على علوم كُسبت بشِقّ النفس والقحول؟ ولو فرضنا أن آفة النسيان أجاحَ شجرةَ علمه من البنيان، وسقطتْ على زهر دِرايته صواعقُ الحرمان، فكيف نفرض أن هذا البلاء ورد على ألوف من العلماء الذين جُعلوا له كالشركاء، وأُشرِكوا في وِزْرِه كالوزراء؟ بل أُذِنَ له أن يطلب كلَّ ما استيسرَ له من الأدباء، لعلّه يكتب قولاً بليغًا ولا يتيهُ كالناقة العشواء.

ثم من المسلَّم أن الله يربّي عقول الصالحين، ويُسعِدهم بالهداية إلى طرق الروحانيين، ويذكِّرهم إذا ما ذهلوا معارفَ كلام الله القدّوس، ويُنْزِلُ السكينة عند الزلزال على النفوس، ويؤيّدهم بروحٍ منه، ويعضُد بالإعانة على الإبانة، ويتولى أمورهم ويميّزهم بالحصاة والرزانة، ويصرِفهم من السفاهة، ويعصِمهم من الغواية ويحفظهم في الرواية والدراية؛ فلا يقِفون موقفَ مندمة، ولا يرون يومَ تندُّمٍ ومنقصة، ولا تغرُبُ أنوارهم، ولا تخرُب دارهم. منابعهم لا تغور،

وصنائعهم لا تبور. ويؤيَّدون في كل موطن ويُنصَرون، ويُرزَقون مِن كل معرفة ومِن كل جهل يُبعَدون. ولا يموتون حتى تُكمَّل نفوسهم فإذا كُمّلتْ فإلى ربهم يُرجَعون. فإن الله نور فيميل إلى النور، وعادتُه البدور إلى البُدور. ولما كانت هذه عادة الله بأوليائه، وسُنّته بعباده المنقطعين وأصفيائه، لزِم أن لا يرى عبدُه المقبول وجهَ ذلّةٍ، ولا يُنسَب إلى ضعف وعلّة، عند مقابلةٍ مِن أهل ملّة، ويفوقَ الكلَّ عند تفسير القرآن بأنواع علم ومعرفة. وقد قيل إن الوليّ يخرج من القرآن، والقرآن يخرج من الوليّ، وإن خفايا القرآن لا يظهر إلا على الذي ظهر مِن يَدَيِ العليمِ العليّ. فإن كان رجلٌ مَلَكَ وحدَه هذا الفهمَ الممتاز، فمَثله كمثل رجل أخرجَ الرُكازَ، وما بذل الجهدَ وما رأى الارتمازَ، فهو وليُّ الله وشأنُه أعظمُ وذيله أرفعُ مِن همزِ الهَمّاز ولمزِ اللَمّاز. وما أُعطِيَ هذا الوليّ الفاني من معارف القرآن كالجَهاز، فهو معجزة بل هو أكبر من كل نوع الإعجاز. وأيّ معجزة أعظم من إعجازٍ قد وقَع ظِلَّ القرآنِ، وشابهَ كلامَ الله في كونه أبعدَ من طاقة الإنسان؟ وليس هذا الموطن إلا للمتّقين، ولا تُفتَح هذه الأبواب إلا على الصالحين، ولا يمسّه إلا الذي كان من المطهَّرين. وإن الله لا يهدي كيد الخائنين الذين يجعلون المكائد منتجَعًا، والأكاذيب كهفًا ومرجَعًا، ولهم قلوبٌ كلَيْلٍ أردفَ أذنابَه، وظلامٍ

مَدَّ إلى مدى الأبصار أطنابَه. لا يعلمون ما القرآن، وما العلم والعرفان؟ ومن لم يعلم القرآن، وما أُوتيَ البيان فهو شيطان أو يضاهي الشيطانَ، وما عرف الرحمنَ. وما كان لفاسق أن يبلُغ هذه المُنْية العَلِيّة، ولو شحَذ إليها النفسَ الدنيّة، بل هو يختار طريق الفرار، خوفًا من هتك الأستار، وظهور العِثار. وكذلك فعَل هذا الرجل الكائد، والمزوِّر الصائد، فانظروا كيف زوَّر، وأرى التهوّرَ، وقال لبّيتُ الدعوةَ وما لبّى، وقال عبّيتُ العسكر للخصام وما عبّى، وما بارزَ بل خدع وخَبَّ، وإلى جُحْرِهِ أَبَّ. وتراءى نحيفًا ضعيفا وكان يُرِي نفسَه رجلاً بَبّا. وأخلدَ إلى الأرض وشابهَ الضبَّ. وما صعِد وما ثَبَّ، وجمَع الأوباش وما دعا الربَّ. وحقّرني وشتم وسبَّ، وتبِع الحيلَ وما صافى اللهَ وما أحبَّ، وما قطَع له العُلَقَ وما جَبَّ. وقال إني عالم والآن نجمُ علمِه أَزَبَّ، وكلُّ ما دبّر تَبَّ. وإنْ كان عالـــمًا فأيّ حرج على عالم أن يفسّر سورة من سور القرآن، ويكتب تفسيره في لسان الفرقان، بل يُحمَد لهذا ويُثنى عليه بصدق الجنان، ويُعلَم أنه من رجال الفضل والعلم والبيان، ويُشكَر بما ينفع الناسَ من معارفَ عُلِّمَ من الرحمن. فلذلك أقول إنه مَن كان يدّعي ذَرى المكانِ المنيع، فليبذُلْ الآن جُهْدَ المستطيع، ويُثبِت نفسَه كالضليع. ولا شكّ أن إظهار الكمال من سيرة الرجال وعادة الأبطال، لينتفع

به الناس وليُخرَجَ به مسكينٌ من سجن الضلال. ولا يرضى الكاملُ بأن يعيش كمجهول لا يُعرَف، ونَكِرةٍ لا تُعرَّف. وإن الفضل لا تتبيّن إلا بالبيان، ولا يُعرَف الشمس إلا بالطلوع على البلدان.

وإني ألزمتُ نفسي أن أكتب تفسيري هذا في إثباتِ ما أُرسلتُ به من الحضرة، وأن أفتحَ هذه الأبواب بمفاتيح "الفاتحة"، مع لطائف البيان ورعايةِ المُلَح الأدبية، والتزام الفصاحة العربية. ومن المعلوم أن نَمْقَ الدقائق الدينيّة، والرموز العلميّة، والإيماضات والإشارات، مع توشيح العبارات وترصيع الاستعارات، والتزامِ محاسن الكنايات، وحسن البيان ولطائف الإيماءات، أمرٌ قد عُدَّ من المعضلات، وخَطْبٌ حُسِبَ من المشكلات، وما جمَع هذين الضِدَّين إلا كتاب الله مظهر الآيات البيّنات، وماحِي الأباطيلِ والجهلات. وإن الشعراء لا يملكون أَعِنّةَ هذه الجِياد، فتنتشر كلماتهم انتشارَ الجَراد، ولكني سألتُ الله فأعطاني، وجئته عطشانَ فأرْواني، فنحن الموفَّقون، ونحن المؤيَّدون. تُواتينا الأقلام، كأنها السِهام والحُسام، ولنا من ربّنا كلامٌ تامّ وظلٌّ ظليل، فكلُّ رداء نرتديه جميل. ولنا جِبِلّةٌ لا تبلُغها الجبال، وقوّةٌ لا تُعجزها الأثقال، وحالٌ لا تغيّرها الأحوال، وربٌّ لا تُرَدُّ مِن حضرته الآمال.

فحاصل الكلام أني من الله وكلامي من هذا العلاّم، وإني كتبتُ دعواي ودلائلها في هذا الكتاب، لأُسعِفَ الخصمَ بحاجته وأُنجيه من الاضطراب. فإن الخصم كان يدعوني إلى المباحثات، بعد ما دعوته لنَمْقِ التفسير في حُلل البلاغة ومحاسن الاستعارات. فلمّا لويتُ عِذاري وتصدّيتُ لاعتذاري من المناظرات، حمَل إنكاري على فراري من هذه الغَزاة، وما كان هذا إلا كيدًا منه وحيلةً للنجاة، ليستعصم من اللائمين واللائمات. وكان يعلم أن إعراضي كان لعهدٍ سبَق، وما كنتُ كعبدٍ أبَق، ولكنه طلَب الفرار بهذه المعاذير الكاذبة، لعل الناس يفهمونه بَطَلَ المضمارِ ومُتِمَّ الحجّةِ، فأردنا الآن أن نعطيه ما سأل ولا نردّه بالحرمان، ونجلِّي مَطلَعَ صدقِنا بنور البرهان، ونقطع معاذيره كلها بسيف البيان، لعلّ الله يجلو به صَدَأَ الأذهان، ويفهِّم ما لم يفهموه قبل هذا الميدان. فهذا هو السبب الموجِب لنمقِ الدعوى والدلائل، لئلا يبقى عذر للسائل.

وإن هذا التفسير جمَع المباحثات، مع اللطائف والنكات، فاليوم أدرك الخصمُ كلَّ ما طلب منا في حُلل المناظرات، مع أنه ترَك طرق الديانات، وتصدّى للأمر بأنواع الاهتضام والخيانات، وبقِي دَيْنُنا فعليه أن يقضي الدَين كرَدِّ الأمانات. وإني عاهدتُ الله أن لن أحضُر مواطنَ المباحثات، وأشعتُ هذا العهد في التأليفات، فما كان لي أن

أنكُث العهود، وأعصيَ الربَّ الودود. فلأجل ذلك أغلقتُ هذا الباب، وما حضرتُ الخصم للبحث ولو عيَّبني واغتابَ، وإني كلّمتُه كالخليط فكلّمني بالتخليط. وقد دعوتُه من قبلُ ففرّ من شوكتي، ثم دعوتُ فهابَه هيبتي، وهذه ثالثة ليتمّ عليه حجّةُ الله وحجّتي. إنه مالَ إلى الزَّمر ومِلْنا إلى الذِّمار. وإن المعارف منّا كبُعوثٍ جُمِّروا على الثغور مِن قِبل مَلِكِ الديار.

ثم اعلموا أن رسالتي هذه آية من آيات الله رب العالمين، وتبصرة لقوم طالبين، وإنها من ربي حجة قاطعة وبرهان مبين. كذلك، ليُذيق الأفّاكين قليلا مِن جزاء ذنوبهم، ويُرِيَ الناسَ ما ترشّح من ذَنوبهم، ويجنّبهم بمعجزة قاهرة، ويزيلَ اضطجاعَ الأمن مِن جنوبهم، ويستأصل راحة كاذبة من قلوبهم. والحق، والحق أقول، إنّ هذا كلام كأنه حُسام، وإنه قطع كلَّ نزاع وما بقي بعده خصام. ومن كان يظنّ أنه فصيح وعنده كلام كأنه بدر تام، فليأْتِ بمثله والصمتُ عليه حرام. وإنْ اجتمع آباؤهم وأبناؤهم، وأَكْفاؤهم وعلماؤهم، وحكماؤهم وفقهاؤهم، على أن يأتوا بمثل هذا التفسير، في هذا المَدى القليل الحقير، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ كالظهير. فإني دعوتُ لذلك وإن دُعائي مستجاب، فلن تقدر على جوابه كُتّابٌ، لا شيوخ ولا شابّ. وإنه كنْز المعارف ومدينتها،

وماء الحقائق وطِينتها، وقد جاء ألطفَ صُنعًا، وأرقَّ نسجًا، وأكثرَ حِكمًا، وأشرفَ لفظًا، وأقلَّ كَلِمًا، وأوفرَ معنًى، وأجلى بيانًا، وأسنى شأنًا. وما كتبتُه من حولي، وإني ضعيف وكمثلي قولي، بل اللهُ وألطافُه أغلاقُ خزائنه، ومِن عنده أسرارُ دفائنه. جمعتُ فيه أنواع المعارف ورتّبتُ، وصفّفتُ شواردَ النكات وألجمتُ. مَن عرَفه عرَف القرآن، ومن حسِبه كذبًا فقد مانَ. فيه باكورة العرفان، ودقائق الفاتحة والفرقان. فيه بلاد الأسرار وحصونها، وسَهْلُ الحقائق وحُزونها، وعيونُ البصيرة وعيونها، وخيلُ البراهين ومتونها. وذلك من بركات "أُمّ الكتاب"، وما اطّلعتُ عليها إلا بعد تفهيمِ ربي التوّاب. فإنها سورة لا تُطوى عَرْصتُها بإنضاء المراكب، ولا يبلُغ نُورَها نورُ الكواكب. ولما كان الظالمون نسبوني إلى الهزيمة، أعوزَني فِرْيتُهم هذه إلى تفسير سورة الفاتحة، لأُخلِّصَ نفسي من النواجذ والأنياب، فإن صول الكلاب أهون من صول المفتري الكذّاب. وهذا من فضل الله ورحمته ليكون آية للمؤمنين، وحسرة على المنكرين، وحجّة على كل خصم إلى يوم الدين، وهدًى للمتقين، وليعلمَ الناسُ أن الفوزَ بصدق المقال، لا بالتصلّف كالجهّال، والفتحَ بطهارة البال، لا بعَذِرةِ الأقوال التي هي كالأبوال، وصلاحَ الحال بسلاح العلم والكمال، لا بالاحتيال والاختيال. فويلٌ للذين قصدوا

الفتح بالمكائد، ورصدوا مواضعها كالصائد. وإنْ هو إلا مِن أحكم الحاكمين، ينصر من يشاء ويكفل الصالحين، فيندمل جريحهم، ويستريح طَلِيحُهم، ولا تركُد ريحهم، ولا تخمُد مصابيحهم. ومنصورُه يُملأ مِن علم الفرقان ولسان العرب، كما يُملأ الدلوُ إلى عَقْدِ الكَرَبِ. وإنه أنا ولا فخرَ، وإن دعائي يذيب الصخر. وإن يومي هذا يوم الفتح ويوم الضياء، بعد الليلة الليلاء. اليوم خرِس الذين كانوا يهذِرون، وغُلّتْ أيديهم إلى يوم يبعثون. وكنتُ أطوف حول هذه الأوراق، كسائل يطوف في السِكك والأسواق، فأراني الله ما أراني، وسقاني ما سقاني، فوافيتُ دُروبَها كما هداني، وأُعطيَ لي ما سألتُ، وفُتح عليّ فحللتُ. وكلّ ما رقَمتُ فهو من أنفاس العلاّم، لا من أفراس الأقلام، فما كان لي أن أقول إني أعلمُ مِن غيري، أو زاد منهم سَيري، ولا أقول إنّ روحي التفَّ بأرواحِ فتيان كانوا من الأدباء، أو غالت نفسي جميعَ نفائس الإنشاء، ولا أدّعي أني انتهيت إلى فِناء منتهى الأدب، أو أكلتُ كلَّ باكورة من المعاني النُخَب، بل دعوتُ مُخدَّراتِه فوافتْني فتياتُه، فقبلهن فتاه مفترّةً شفتاه متهلّلاً مُحيّاه. فلا تستطلعوني طِلْعَ أديبٍ، وما أنا في بلدة الأدب إلا كغريبٍ. وكل ما ترون مني فهو من تأييد ربي، ومِن حضرةٍ ألقيتُ بها جِراني وحملتُ إليها إِرْبي، وإنه في العُقبى وهذه حِبّي. وإني

مسيحه وحماري حِمارةُ حفِظه، ولُطفه قَتَبي. ولولا فضل الله ورحمته لكان كلامي ككَلِمِ حاطبِ ليلٍ، أو كغُثاءِ سيلٍ. ووالله إني ما قدرتُ على هذا بقريحةٍ وقّادة، بل بفضل من الله وسعادة. وإن هذه المخدَّرة ما سفَرت عن وجهها بيدي القصيرة، ولكن بفضل الله وعناياته الكثيرة، فإنه رأى الإسلام كسقيم في مَوماةٍ، فيه رَمَقُ حياةٍ، ساقطًا على صَلاة، كقذائفِ فلواتٍ، وعلاه صَغارٌ، وعليه أطمار، فأدركَه كإدراك عِهاد، لسَنَةٍ جَمادٍ، ورحَض وجهَه وأزال وَسَخَ مِئِينَ، وصبَّ عليه الماءَ المَعينَ. فبعث عبدًا من عباده لإتمام الحجة، وأودعَ كلامَه إعجازًا ليكون ظِلاًّ للمعجزة النبوية – عليه ألوف الصلاة والتحية – ولا يَمَسُّ منه منقصةُ شأنِ كلام ربّ الكائنات، فإن الكراماتِ أظلال للمعجزات. وكذلك دمّر الله كلَّ ما دبّر العِدا كالصائد، وهدّم كلّ ما بنوا من المكائد، وأبطلَ كلّ ما حقّقوا مكيدةً، وأخّرَ كلَّ ما قدّموا حَرْبةً، وعطّل كلَّ ما نصبوا حيلةً، وهدّم كلّ ما أشادوا بروجًا مشيَّدة، وأطفأَ كلَّ ما أوقدوا نارًا، وأغلق الدروب كلما أرادوا فرارًا، فما كان في وسعهم أن يبارزوا كأبطال المضمار، أو يخرجوا من هذا السجن بتسوُّر الخنادق والأسوار. وما قدّموا قَدَمًا إلا رجعوا بأنواع النَكال، حتى جاء وقت هذا التفسير الذي هو آخر نبل من النِبال، وإنّا كمّلناه بفضل الله

ذي الجلال، وجاء أرسى وأرسخَ من الجبال، وصار كحصنٍ حَصينٍ بُنِيَ بالأحجار الثقال، وإنه بلغ حدَّ الإعجاز من الله الفعّال، وإنه محفوظ مِن قصد العدوّ المدحور الضالّ. وانتصفْنا به من العِدا بعضَ الانتصاف، وكسَرْنا خيامًا ضربوها وقِبابًا نصبوها في المصافّ. وكان هذا الأمر صعبًا ولكن الله ألانَ لي شديدًا، وأدنى إليّ بعيدًا، ونقل العدوَّ من السعة إلى المضايق، وأعمى أبصاره وصرَف همّته عن العلوم والحقائق، وألقى الرعب في قلوبهم، وأخذهم بذنوبهم، فنبذوا سلاحهم، وتركوا لِقاحهم، وأنفدوا وَجاحَهم، وقوّضوا قِبابَهم، ونثَلوا جِعابهم، ونفَضوا جِرابهم، وأرَوا من العجز أنيابهم، وأذِن لهم أن يأتوا بجميع جنودهم مِن خيلها ورَجِلِها، وحَفْلِها وجَحْفلِها، وزُمَرِها وقوافلها، فصاروا كمَيتٍ مقبور، أو زيتِ سراج احترق وما بقي معه من نور. وسكّتْنا مَن بارز مِن صغيرهم وكبيرهم، وأَوْكَفْنا مَن نَهَق من حميرهم، فما كانوا أن يتحركوا من المكان، أو يميلوا من السنَةِ إلى السِنان، بل جرّبنا مِن شَرْخِ الزمن إلى هذا الزمان، أن هؤلاء لا يستطيعون أن يبارزونا في الميدان، وليس فيهم إلا السب والشتم قاعدين في الحجرات كالنسوان. يفرّون من كل مأزقٍ، ويتراءى أطمارُهم مِن تحتِ يَلْمَقٍ، ثم لا يُقرّون ولا يتندّمون، ولا

يتقون الله ولا يرجعون. فهذا التفسير عليه سهمٌ من سهام، وكَلْمٌ بكلام، لعلهم ينتبهون، وإلى الله يتوبون.

وإنّا شرَطْنا فيه أن لا يجاوز فريق منّا سبعين يومًا، ومَن جاوز فلن يُقبَل تفسيره ويستحقّ لومًا. وكذلك من الشرائط أن لا يكون التفسير أقلَّ من أربعة أجزاء، وهذه شروط بيني وبين خصمي على سواء، وقد شهرناها من قبل وبلّغناها إلى الأحباب والأعداء، بعد الطبع والإملاء.

والآن نشرع في التفسير بعون الله النصير القدير، ورتّبناه على أبواب لئلا يشقّ على طُلاّب. ومع ذلك سلَكْنا مسلكَ الوسط ليس بإيجازٍ مُخِلٍّ، ولا إطنابٍ مُمِلٍّ. وإنه له عن هذا العاجز كالعِجْزة، وأُخرِجَ مِن رَحِمِ القَدر برَحْمٍ من الله ذي العزّة، في أيام الصيام ولياليِ الرحمة. وسمّيتُه "**إعجاز المسيح** في نَمْق التفسير الفصيح". وإني أُرِيتُ مبشِّرةً في ليلة الثلاثاء، إذ دعوتُ الله أن يجعله معجزة للعلماء، ودعوتُ أن لا يقدر على مثله أحدٌ من الأدباء، ولا يُعطَى لهم قدرةٌ على الإنشاء، فأُجيبَ دعائي في تلك الليلة المباركة من حضرة الكبرياء، وبشّرني ربي وقال: "منَعه مانعٌ من السماء". ففهمتُ أنه يشير إلى أن العدا لا يقدرون عليه، ولا يأتون بمثله ولا كصِفَتَيْه. وكانت هذه البشارة من الله المنّان، في العشر الآخر من رمضان،

الذي أُنزلَ فيه القرآن، ثم بعد ذلك كُتب فيه هذا التفسير، بعون الله القدير.

رَبِّ اجعَلْ أفئدةً من الناس تهوي إليه، واجعلْه كتابًا مباركًا وأنزِلْ بركاتٍ من لدنك عليه، فإنّا توكّلنا عليك، فانصرْنا مِن عندك وأيّدنا بيديك، وكفّلْ أمرنا كما كفّلتَ السابقين من الصالحين، واستجبْ هذه الدعواتِ كلَّها وإنّا جئناك متضرعين، فكُنْ لنا في الدنيا والدين. آمين.